Saint Cyril of Alexandria

القديس كيرلس الإسكندري

الخلاص

دكتور جورج حبيب بباوي

الخلاص

كما شرحه
القديس كيرلس الإسكندري

دكتور جورج حبيب بباوي

إسم الكتاب : الخلاص
كما شرحه القديس كيرلس السكندرى
المؤلـــف : الدكتور جورج حبيب بباوي
الناشـــر : جذور للترجمة والنشر والتوزيع - ت : ٢٧٧٩٦١٣٧
رقم الإيداع : ١٤٤٧٦ / ٢٠٠٧
الطبعة الثانية : يونيو ٢٠١٩ ميلادية

جدول المحتويات

مقدَّمة القديس كيرلس السكندري: ٥
تمهيد : ٥
لماذا موضوع الفداء بالذات؟ ٦

الفصل الأول:
عرض تاريخي للنظرية القانونية ٩
ما هي النظرية القانونية؟ ١٠
بعض الاعتراضات على النظرية القانونية : ١١

الفصل الثاني:
الخلق والسقوط ١٥
خلق الإنسان على صورة الله ١٥
كيف ساد الموت على الإنسان ١٧
المعنى اللاهوتي للوصية الأولى ١٨
كيف نفهم الموت؟ ١٩
ما معنى حكم الموت النابع من الناموس ٢١
خطية آدم وانتقالها إلى الإنسانية ٢٣
كيف شرح القديس كيرلس علاقتنا بخطية آدم ٢٥

الفصل الثالث:
حاجتنا إلى المُخلِّص يسوع المسيح ٢٩
تدبير التجسُّد ٣٣
نتائج اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح الواحد ٣٦
المسيح هو الجذر الجديد للإنسانية الجديدة ٣٩
معمودية المسيح في الأردن ٤٠
لماذا قبل المسيح الروح القدس؟ ٤٦
لماذا بعد القيامة؟ ٤٧
الفرق بين حلول الروح القدس في العهد القديم والعهد الجديد ٤٨

مديح للقديس كيرلس عمود الدين ٤٩

مقدَّمة

القديس كيرلس السكندري والإتجاهات الأساسية في اللاهوت الشرقي شرقاً وغرباً

تمهيد:

كان العالم الألماني Scheeben[1] هو أول من انتبه إلى أن التيار الروحي واللاهوتي السكندري قد وصل إلى نضوجه وكماله بواسطة القديس كيرلس السكندري، الذي درس كتابات الذين سبقوه من آباء الإسكندرية وحللَّها بدقة وحس لاهوتي واضح. ونضيف إلى ذلك أن كيرلس استبعد الكثير من العناصر العقلية والنزعة الحرة غير المرتبطة بالتسليم الرسولي، والنابعة من الفلسفة اليونانية التي أعتمد عليها العلامة أوريجينوس وتلميذه ديديموس الضرير.

كانت بداية تنقية اللاهوت السكندري على يد القديس أثناسيوس الذي كتب "تجسُّد الكلمة" كبداية تصحيح لمسار الفكر المسيحي الذي دخل مرحلة الشطحات على يد العلامة أوريجينوس. فجاء أثناسيوس وعالج في هدوء وعفة قلم شطحات العلامة أوريجينوس دون أن يذكر أنه يرد عليه، أو يهاجم الآراء التي ينادي بها أوريجينوس بسبب محبته واحترامه الشديد لما بذله أوريجينوس في سبيل نشرالعقيدة المسيحية. ولوكانت الظروف الكنسية قد ساعدت أثناسيوس لرأينا الكثير، ولكنه خصص حياته بعد ذلك لمقاومة البدعة الأريوسية وخاض غمارالجدل اللاهوتي ضدها بكل قوته، فترك مهمة إكمال عمله للقديس

1) West's Kirchen Lexicon, Freiburg, 1884, Vol 3, 1287

كيرلس عمود الدين الذي بدأت كتاباته اللاهوتية باختيار أفضل ما خلَّفه الآباء جميعاً.

لماذا موضوع الفداء بالذات ؟

لا تخلوالكتب اللاهوتية في الغرب من فصول كاملة عن تاريخ العقيدة المسيحية، ومراحل تطور شرح العقيدة عبر العصور المختلفة التي مرت بها الكنيسة في الشرق أو الغرب على حد سواء.

وطالبِ اللاهوت في الغرب لا يدرس اللاهوت العقيدي قبل أن يتعمق في دراسة تاريخ العقيدة، وذلك لكي يدرك كيف تطور شرح العقيدة، وكيف يسعى كل جيل لكي يجيب على الأسئلة الهامة التي تبرز في زمانه..

وهنا يجب أن نؤكد بوضوح على أن تطوُّر شرح العقيدة ليس تطوراً للعقيدة، وإنما هو المواجهة اللازمة بين العقيدة وما يدور حولها من مشكلات وأسئلة تختلف من عصر إلى عصر.

لقد أبرز علماء العهد الجديد ابتداءً من بداية القرن الثامن عشر الفروق الجوهرية بين القديس بولس والقديس يوحنا. وساد في تاريخ العقيدة أن القديس بولس يشرح الفداء بشكل قانوني Juridical بينما يشرح القديس يوحنا الفداء بشكل سري Mystical وأن الجمع بين الاثنين غير ممكن[٢] فالقديس بولس. حسب زعم هؤلاء. يرى أن الإنسان أمام القضاء الإلهي عَجَزَ عن الوفاء بديونه لله، فجاء المسيح ودفع هذه الديون وأطلق سراح الإنسان أو برَّه. أمَّا القديس يوحنا، فهو لا يلجأ إلى هذا الشرح بالمرة، وإنما يضع محبة الله ورغبته الأبوية في

2) Stanisluas Lyonnet "*Conception Paulinicnnc de la Redemption*" Lunieve et vie, VIII, 36, 1958, 3566.
See ala: L. Subourin, "*Redemption Sacripicielle"*, DDB, 1961, 3238.

أن يخلِّص الإنسان، وبسبب هذه المحبة يرسل ابنه الوحيد. وأن الإنسان الذي لا يستمر في محبة الله، أو يقترب من الله بدون المحبة لا يمكنه أن ينال الخلاص.

وليس من شك في أن الذين حاولوا إبراز الفروق بين بولس ويوحنا لم يبذلوا نفس الجهد لإبراز ما يتفق فيه الرسول بولس مع الرسول يوحنا. كما لم يحاول عدد كبير من علماء العهد الجديد اكتشاف معاني الكلمات والمفردات المترادفة عند القديس بولس بالذات، الذي وإن كان قد استخدم كلمة "فدية" و"دين" و"تبرير"، إلاَّ أن هذه الكلمات لا يجب أن تُدرس بمعزل عن الكلمات الأخرى التي تنتمي إلى نفس الموضوع، والتي إن حلَّت محلها، اتضح بوضوح شديد أن الرسول بولس يستخدم هذه الكلمات مثل "فدية" في غير معناها الشائع في لاهوت العصور الوسطى. كما أن الاستعارات عند القديس بولس ليس لها مضمون عقيدي، وإنما هي شرحٌ وتشبيهاتٌ للعقيدة.

من هذه الزاوية نقدَّم هذه الدراسة التي تعتمد على كتابات القديس كيرلس السكندري كمثال لاتحاد بولس ويوحنا في شرح الفداء، بل وكضرورة لما يجب أن يكون عليه فهمنا المسيحي لموضوع دقيق جداً وهو موضوع الفداء.

ومن زاوية أخرى، فإن العودة إلى الآباء هي صرخة أطلقها الآباء أنفسهم في المجامع المكانية والمسكونية. فقد كانوا يقولون دائماً في بداية شرحهم للعقيدة إنهم "يتبعون الآباء"، وبالتالي إن كان طريق الآباء هو طريقنا، فنحن نقدَّم هذه الدراسة؛ لأننا نتبع القديس كيرلس الذي شرح الآباء، واستخدم أفضل ما لديهم، وهو ما جعل أحد علماء الكنيسة البيزنطية في القرن السادس يقول عن كيرلس السكندري إنه "ختم الآباء"[٣].

3) P.G. 89:113 D.

الفصل الأول

عرض تاريخي للنظرية القانونية

يُعتبر(القديس) أنسلم Anselm رئيس أساقفة كنتربري في انجلترا هو المؤسس الحقيقي للنظرية القانونية لموت المسيح على الصليب، والتي شرحها بوضوح في كتابه المشهور لماذا تجسد الله Cur Deus Homo وفي مصر يعتبر المؤلِّف عوض سمعان هو أفضل من صاغ فكر أنسلم مع تعديلات بسيطة، وذلك في كتابه"قضية الغفران في المسيحية". والنظرية القانونية لها جذور قديمة في ميمر"العبد المملوك"وهو أحد المقالات التي تنسب إلى ساويرس ابن المقفع المؤرخ الكنسي المشهور، والذي شرح موت المسيح بشكل آخر مختلف في كتابه الذيُ طبع مؤخراً "الدر الثمين في إيضاح الدين"، والذي أعتمد فيه ابن المقفع على شرح العلامة أوريجينوس أكثر من غيره من الآباء. وكما نعرف أن ميمر العبد المملوك هو أحد الكتب الهامة التي لا تزال تُقرأ في الجمعة الكبيرة. فالنظرية القانونية ليست غريبة على الفكر المسيحي المصري، بل هي متأصلة فيه عند الأرثوذكس والبروتستانت على حد سواء. وعند البروتستانت تُعتبر هذه النظرية هي الأساس الإنجيلي[٤] للتعليم الخاص بالتبرير بالإيمان، وهي العقيدة التي تميَّز الفكر الإنجيلي المصري.

أمَّا عند الأرثوذكس، فقد أحدثت هذه النظرية فوضى تامة في لاهوت الأسرار، وجعلت من الإفخارستيا موضوعاً جدلياً صعباً، وهو ما انعكس بدوره

٤- أي أساس المذهب الإنجيلي في شرح التعليم الخاص بالتبرير بالإيمان.

على التفكير في الأسرار على أنها قنوات للصليب، ووسائط للخلاص، ووسائط نعمة واستمرار لذبيحة الصليب .. الخ. ويكفي أن نقول إن اتفاق الأرثوذكس مع الإنجيليين في مصر حول النظرية القانونية لا يمكن أن يؤدي في النهاية إلى اختلافات لاهوتية جوهرية حول الأسرار. وسوف نرى كيف تهدم هذه النظرية . وبشكل خاص . المعمودية والإفخارستيا من جذرهما.

ما هي النظرية القانونية ؟

تقول هذه النظرية . كما صاغها أنسلم . إن آدم أخطأ، فأهان الله واعتدى على كرامته الإلهية، وهو عمل قام به ضد الله العظيم، مما يجعل ضرورة تقديم ترضية كافية أمراً لا مفر منه لكي يعفو الله عن آدم. ولما كانت كرامة الله ومجده بلا حدود، وجب تقديم ترضية غير محدودة لله، وهو ما يعجز عنه آدم.

هذه هي الفكرة الأساسية عند أنسلم، وهي كما نعرف نابعة من روح العصر الوسيط الذي كان يعتبر أن الإهانة الموجهة من عبد إلى أمير، أمر لا يمكن أن يصفح عنه الأمير إلاَّ بعد تقديم ترضية كافية تليق بمقام الأمير. وأحياناً كان يتعذَّر تقديم هذه الترضية مما يجعل العقوبة أمراً لا مفر منه. من هنا جاءت فكرة الترضية المناسبة التي عجز آدم عن تقديمها. ومن هنا وُلِدَ هذا تعبير Satisfaction أوالترضية في اللاهوت الغربي. ويُقصَد به الترضية التي استطاع المسيح وحده أن يقدَّمها للآب. ومن هنا ولدت نظرية استحقاقات المسيح Merits فهو الذي استحق أن يفتدي الإنسان.

بعد أنسلم، وبسبب نقد المفكرين المسلمين لشرح الشرقيين لموت المسيح، أضاف الأقباط عنصراً آخراً هاماً موجودٌ . بدون شك . في كتاب أنسلم "لماذا تجسد الله؟"، ولكنه أُبرز على نحو واضح في الشرق، وهو عنصر صراع العدل والرحمة الذي أبرزه ميمر العبد المملوك على النحو الوارد فيه، والذي يتمثل في

انعقاد المحكمة الإلهية، والحوار الذي دار بين العدل الإلهي الذي يريد أن يُوقع العقوبة على آدم، بينما تسعى الرحمة في طلب الصفح. وهنا يضعنا الميمر أمام موقف مستحيل على الله نفسه، الذي لم يجد أية إمكانية لحل هذه المعضلة إلاَّ بأن يتجسَّد الابن لكي يموت، فيُصالح العدل مع الرحمة؛ لأن موته . من ناحية . ترضيةٌ للعدل الإلهي ونفاذٌ للعقوبة، ومن ناحية أخرى، فإن إطلاق سراح آدم والعفو عنه هو أيضاً تأكيدٌ لعمل الرحمة الإلهية[٥]

بعض الاعتراضات على النظرية القانونية:

ولعلنا قد نسأل: وما هو الخطر في هذا الشرح؟ أليس هذا صحيحاً؟ أليس هذا هو ما حدث فعلاً يوم الجمعة العظيمة؟ وقبل أن نعرض لأخطار هذا الشرح، علينا أن نتوقف أمام هذين الاعتراضين:

أولاً : وماذا بعد العفو عن آدم وإطلاق سراحه دون تجديد طبيعته الخاطئة؟

طبعاً أخرجت النظرية القانونية الصليبَ[٦] تماماً من موضوع تجديد الطبيعة الإنسانية أو الخلق الجديد. وقد وجد الأرثوذكس أن الأسرار تسد هذه الفجوة. أمَّا البروتستانت، فقد اعتبروا أن الولادة الثانية . وهي بالمناسبة . ليست المعمودية، وإنما هي مجرد قبول المسيح، يكفي لأن يضع الإنسان خارج المحكمة، وأن ينتظر مرحلة التقديس. وبذلك وضعوا، ليس صليب المسيح فقط خارج تجديد الخليقة، بل أيضاً الروح القدس. ونشأ . رغم التعارض الشديد في فهم وتطبيق

٥ راجع بتفصيل أوفي كتابنا : القديس أثناسيوس الرسولي في مواجهة التراث الديني غير الأرثوذكسي طبعة ١٩٨٥ م – الفصل الثاني بعنوان القديس أثناسيوس وميمر العبد المملوك، والمشاكل اللاهوتية الناشئة عن تصور أن الصليب هو مصالحة للعدل مع الرحمة، ص ٧٤ وما بعدها. ومن الجدير بالذكر أننا أوردنا في كتابنا هذا قصيدَة شعريَّة من الغرب تتطابق مع ميمر العبد المملوك عن سقوط الإنسان أو حوار بين العدل والرحمة، ص ٩٩ وما بعدها.

٦- وذلك لأن هذه النظرية قد قصرت فهم الصليب على أنه – فقط . الوسيلة التي تم بها مصالحة العدل والرحمة الإلهيين.

النظرية القانونية . تيارٌ روحيٌ مصريٌ واحدٌ تُعَبِّر عنه التراتيل المصرية المتبادلة في اجتماعات الأرثوذكس والبروتستانت[٧].

وطبعاً، المعمودية هي موت وقيامة مع المسيح، والاشتراك في موت المسيح أمر حتمي لتجديد الطبيعة الإنسانية، وذلك كما سجل الرسول بولس بنفسه "كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته فدُفنَّا معه بالمعمودية للموت حتى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب، هكذا نسلك نحن أيضاً في الحياة الجديدة جداً" (رومية ٦ : ٣ . ٤). ولو كان الرسول بولس يؤمن بأن المسيح قد مات لكي يصالح عدل الله مع رحمته؛ لأن الإنسانِ عاجزٌ عن هذه المصالحة، فكيف أمكنه أن يكتب هذه العبارة: "عالمين أن :إنساننا العتيق قد صُلِبَ معه .."(رومية ٦ : ٦) ؟ وكيف أمكن للإنسان أن يُصلب مع المسيح الذي كان . على حد وصف عوض سمعان وغيره من المدافعين عن النظرية القانونية . هو وحده الفادي الذي توفرت فيه هذه الشروط الأساسية:

أ . أن يخلو من الخطية لكي يقدم الترضية غير المحدودة.

ب . أن يكون غير محدود لكي يفي مطالب العدل الإلهي غيرالمحدود.

لماذا يُصلب الإنسان مع المسيح في المعمودية، بينما هو عاجز تماماً عن الدخول في موضوع مصالحة العدل والرحمة وتقديم الكفارة المناسبة؟

والأهم، لماذا يُصلب الإنسان بعد أن صُلب المسيح ودَفَعَ الفديةَ المطلوبة؟

ثانياً : كيف تشرح النظرية القانونية اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح الواحد؟

في الواقع، لا تقيم هذه النظرية لهذا الموضوع أي اعتبار بالمرة، بل تضع نفسها في مأزق قانوني خطير جداً. فالترضية غير المحدودة التي يجب أن يقدَّمها

٧- مثل ترنيمة ''قد قضى ديني كله الحمل''

الإنسان، والتي هي غير ممكنه . كما يشرح أصحاب هذه النظرية . بسبب محدودية الإنسان، صارت ممكنةً بسبب المسيح غير المحدود، فما هو المقصود من هذا على نحو قانوني دقيق، طالما أن أصحاب هذه النظرية قد لجئوا إلى القانون الوضعي، لا إلى كلمة الله لشرح موت المسيح على الصليب؟

الترضية غير المحدودة ليست سوى اللاهوت وحده، وبالتالي لا معنى بالمرة لتجسُّد الابن.

والأهم من كل هذا هو نقطة قانونية لا تخطر على بال القانونيين، ألا وهي : إذا كانت خطية آدم تقتضي الموت غير المحدود، فلماذا قام المسيح من الموت؟

وكيف حل بديلاً لآدم بينما هو لم ينل عقوبة آدم غير المحدودة عندما قام من الأموات في اليوم الثالث؟ كيف قام بينما كان يجب أن يظل في قبضة الموت إلى الأبد؟

إن كل الردود التي تقال للإجابة على هذه النقطة بالذات لا تستحق التسجيل، بل هي في الواقع تضيف مزيداً من التعقيدات التي لن تفيد القارئ.

فإذا كان المسيح قد مات بالجسد . وهو ما نؤمن به جميعاً . فقد بات من الواضح أن موته بالجسد هو أمر لا يمكن أن يتم إلاَّ على أساس اتحاد اللاهوت بالناسوت، وبالتالي صار من الضروري أن نعود إلى الآباء، وعلى رأسهم معلمنا القديس كيرلس لكي نكشف كيف شرح الآباء موت المسيح على الصليب، وكيف شرحوا اتحاد اللاهوت بالناسوت، وعلاقة الاتحاد بالموت والقيامة.

ولما كان القديس كيرلس قد خاض غمار الصراع ضد الهرطقة النسطورية التي أنكرت اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح، كان من الضروري أن نلجأ إليه هو بالذات لكي نمسك بقوة التسليم الرسولي الذي شرحه في كتاباته.

الفصل الثاني

الخلق والسقوط

خلق الإنسان على صورة الله:

لا يبدأ موضوع الفداء عند الآباء بموضوع العدل والرحمة، وإنما يبدأ بموضوع خلق الإنسان على صورة الله؛ لأن تحديد طبيعة الإنسان وشرحها هو الذي يجعل فهم طبيعة الفادي أمراً ممكناً.

لقد سأل القديس كيرلس نفسه هذا السؤال: "ما هي الطبيعة القديمة التي يقول الرسول بولس أن المسيح جاء لكي يجددها؟" (مجلد ٦٨ : ١٧).

وبالطبع، فإن علينا أن نرى بكل وضوح كيف خُلق الإنسان على صورة الله، وما هو مدلول هذه العبارة الهامة في تكوين (١ : ٢٦) عند القديس كيرلس السكندري بالذات.

إن قصة خلق آدم مرت بمراحل من التفسير غير المسيحي، كان أشهرها تفسير العلاَّمة أوريجينوس الذي تصوَّر أن الله قد خلق الإنسانَ روحاً محضاً ثم سقط، وبعد ذلك حبسه الله في الجسد. وقد اعتمد هذا التفسير على الفكر الأفلاطوني.

وفي مرحلة أخرى شاع عند الذين تأثروا بالفلسفة أيضاً أن آدم خُلق جسداً من التراب وبعد ذلك خَلَقَ الله له النفس الإنسانية وهي ما تعَّبر عنه النفخة المشهورة في تكوين (٢ : ٦ ـ ٧).

ولكن عند آباء الإسكندرية . وبشكل خاص أثناسيوس وكيرلس . خُلق الإنسان منذ البداية حياً عاقلاً، أو حياةً عاقلةً. والعقل هنا لا ينتمي إلى القدرات الجسدية المخلوقة من التراب، وإنما يأتي من العلاقة مع الله، وهي التي تميَّز بها الإنسان عن الحيوانات وسائر الكائنات الأخرى. فما الذي ميَّز الإنسان عن غيره؟

يؤكد القديس كيرلس أن النفخة لم تكن خلق النفس الإنسانية، وإنما كانت هبة وعطية الروح القدس. وقد ناقش القديس كيرلس الذين فسَّروا النفخة الإلهية على أنها خلق النفس الإنسانية، وقال إنه تفسيرٌ غير سليم (راجع شرح إنجيل يوحنا ٢٠ : ٢٢ . مجلد ٧٤ : ٢٧٧)[٨] وأكد في أكثر من موضع أن الروح القدس هو هبة الحياة. وبدون هذه الهبة لا يمكن للإنسان أن يكون على صورة الله ومثاله. فليس من قدرات الإنسان الطبيعية ما يجعله قادراً على أن يكون صورة الله، وهو لا يملك العطية الفائقة للطبيعة.

ومن هنا ندرك أيضاً لماذا أطال أثناسيوس في شرح خلق الإنسان على صورة الله قبل أن يشرح تجسُّد الابن. فالكلام عن كائن حي ينتمي إلى الحياة المخلوقة من العدم فقط، وليس لديه عطية إلهية فائقة لايستلزم تجسُّد الكلمة لفداء الإنسان. وإنما الحقيقة الواضحة هي أن آدم وُهِبَ منذ البدء الجسدَ والنفسَ، ووُهِبَ التقديس وعدم الفساد والعقل، وهي من مكونات الصورة الإلهية في الإنسان. ولهذا كانت النفخة هي ختم عدم الفساد الذي وهب لآدم.

وطالما كان آدم باقياً أو مقيماً في هذه النعمة الفائقة، فقد كان في غير حاجة إلى المخلِّص، أي أن الخليقة كانت تسير في طريقها الإلهي السليم.

٨- راجع د. جورج حبيب بباوي – مجموعة الآباء. ٤: آلام المسيح وقيامته عند القديس يوحنا للقديس كيرلس السكندري، تفسير الإصحاحات ١٨ . ٢١ . ابريل ١٩٧٧ م. ص ١١٠ ومابعدها.

وهكذا حلَّ الروح القدس في الإنسان بدون وسيط، ولذلك لولا خطية آدم ما كان المسيح قد تجسد وصار مثلنا (حوار عن الثالوث). وكان من المستحيل على الموت أن يسود علينا، وكان غير مطلوب أن يتجسَّد الابن، وأن يقدِّم نفسه لأجلنا (يوحنا ٦ :٥١ .٥٢).

كيف ساد الموت على الإنسان ؟

إذا كانت الحياة الإلهية قد منحت الإنسان الأول هذه النعمة الفائقة وجعلت الإنسان حياً في شركة مع الثالوث بالروح القدس، فكيف ساد الموت؟ لقد ساد الموت من خلال الخطية. وكيف استطاعت الخطية أن تدمر حياة الشركة بين الله والإنسان؟

في الفردوس لم يشترك آدم فقط في الحياة الإلهية، بل كان سيداً على كل شيء على الأرض، وكان بينه وبين المخلوقات سلام وفرح، وبالتالي لم يكن لديه أي سبب يدعوه لأن يغَّير من حالته التي نال فيها نعمة إلهيةً، ومارس سلطانه على الخلائق التي وُضِعَت لخدمته. وبعد حالة النعمة الفائقة والحياة العقلية أعطى الله لآدم وصيةً لكي يأكل من كل شجر الجنة ما عدا شجرة معرفة الخير والشر. فالحياة الفائقة التي نالها آدم ليست مجرد صورة مطلقة تامة للحياة الإلهية، وإنما هي حياة تؤكد الوصية خضوعها لله واعتمادها على الله. هنا يضع القديس كيرلس أول لمسة رسولية لمحتوى الوصية كما شرحه القديس بولس، وهي نقطة هامة ذات دلالة ليس في خلق الإنسان فقط، بل لفهم المسيحية نفسها.

المعنى اللاهوتي للوصية الأولى:

لقد كان آدم مخلوقاً حسب صورة الله، وهو الوضع الفائق الذي جعل آدم سيداً للخليقة، ولكن هذه السيادة تعني أن آدم غير خاضع لله، ولذلك وُهِبَ آدم الوصية لكي تزداد علاقته بالله، ولكي لا تصبح النعمة مصدراً لتصورات خاطئة، أو علاقة ليست خاضعة لله. ولذلك وُضِعَت عقوبة في حالة التعدي لكي يعلم الإنسان أنه ليس مطلق الحرية ويمكنه أن يفعل ما يشاء. ولكن النقطة الأساسية التي يؤكدها القديس كيرلس هي:

١. كانت حياة آدم مستمدة من الله.

٢. كانت حياةً غير مقيدةٍ بقيود الطبيعة الترابية، وإنما وُهِبَت نعمَة فائقَة، هي أن تكون على صورة الله ومثاله، ومستمدة من الروح القدس.

٣. جاءت الوصية لا لكي تكون مصدر حياة، بل لكي تسند الإرادة الإنسانية. وبالتالي، فالحياة أعظم من الوصية. لأنها حياة مستمدة من النعمة، وليست مستمدة من الوصية.

يقول كيرلس:

> **"في البدء. قبل الوصية. لم يكن وجودٌ للخطية في العالم، فقد كانت الحياة فقط، وكانت الحياة بلا ناموس. ولكن لكي يخضع آدم لله ويصبح تحت سلطان الناموس، قيل له من كل شجر الجنة تأكل، أمَّا شجرة معرفة الخير والشر، فلا تأكل منها؛ لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت".**

إذن، الوصية مختلفَة تماماً عن هبة الحياة. وهكذا يؤكد القديس كيرلس أن سبق الحياة للوصية هو أمر أساسي في خطة الله لخلق الإنسان. إن الوصية

أعطيت لكي تؤكد اعتماد الإنسان على الله وليس انفراد الإنسان بالحياة بعيداً عن الله. فالوصية هي التعبير عن هذا الاعتماد، ولكنها ليست هي الاعتماد نفسه، وإنما الاعتماد مصدره النعمة الإلهية.

ولكن كيف صار الاحتفاظ بالنعمة مؤسساً على تنفيذ الوصية؟ إن الرد الواضح عن القديس كيرلس هو "في البدء وُهِبَ الروح القدس لآدم، ولكن الروح لم يمكث في الطبيعة الإنسانية؛ لأن آدم تاه بعيداً وسقط في الخطية"(العبادة بالروح والحق ٣ : مجلد ٦٨ : ٦٨٩). إن كسر الوصية معناه الرغبة في الابتعاد عن الله، وهو حالة التشُّرد التي أُصيب بها آدم وجعلته يفقد العطية الفائقة.لقدوهِبت النعمة لكي يبقى الإنسان في الشركة. أما وأنه ترك الشركة، فإنه لا يمكن أن يبقى في النعمة. وعلامة ترك الشركة هي كسر الوصية.

كيف نفهم الموت ؟

الموت هو فقدان النعمة وهو عدم سُكنى الروح القدس في الإنسان، وبالتالي بقاء الإنسان في حالته الطبيعية بلا نعمة. فالموت يصبح هنا ظاهرة طبيعية جداً؛ لأن الطبيعة الإنسانية غير قادرة على البقاء في الحياة الفائقة، وتفقد قدرتها على البقاء بسبب فقدان النعمة.

عندما سقط آدم كان سقوطه معناه أن يعود كائناً في حدود الطبيعة التي خُلقت من العدم. وهكذا يكتب القديس كيرلس "بدأ آدم في الهلاك وخضعت الطبيعة الإنسانية فوراً للموت". وجاءت اللعنة واضحة وهي عودة الإنسان إلى الحالة الطبيعية التي كان عليها "ترابٌ أنت والى التراب تعود". "هذه اللعنة تعني أن الطبيعة الإنسانية لم تعد تتمتع بالشركة مع الله، وإلاَّ كيف يمكن أن تعود إلى التراب". وهكذا يحدد كيرلس بشكل واضح أن النقطة الحاسمة في سقوط آدم هي "آدم ومعه كل الجنس البشري الذي كان فيه حكم عليه بالموت

والفساد" (العبادة بالروح والحق : ٣) وعندما ترك الروح القدس الإنسان، صار الإنسان وحده في مواجهة الناموس واللعنة المرتبطة به، وهكذا صارت لعنة الموت هي القوة التي أعادت الإنسان إلى الحياة الطبيعية الخالية من النعمة "وصار الذين يتعدون الناموس ينالون العقوبة التي حددها الناموس" (تفسير رومية ٥ : ١٣ مجلد ٧١ : ٧٨٤).

وهكذا صارت الحياة خاضعة لقوة الموت بسبب غياب الروح القدس، وصار كل من يُولد من آدم يُولد خاضعاً للموت، أي بلا شركة في الله بالروح القدس، وبسقوط آدم "صارت الطبيعة الإنسانية كلها مريضة بمرض الموت، وصارت الإنسانية تولد ميتة".

وهكذا ورثت الإنسانيةُ الموتَ. وصارت وراثة الموت هنا مصدرها ولادة الإنسانية بلا شركة مع الله. هذا هو المقصود بسقوط آدم وبالخطية الأولى. وفي هذا الإطار وحده يجب أن نفهم التعارض الواضح بين الإنسان والناموس عند القديس بولس الرسول، فقد صارت الطبيعة الإنسانية بعد سقوط آدم، تحت عقوبة الموت ولعنة الناموس بسبب السقوط. "وعندما أخطأ الإنسان سقط تحت لعنة الناموس الذي ثبَّته الله بقوة اللعنة لكل الذي يتعدون الناموس" (رومية ٧ : ٦ مجلد ٧٤ : ١). فلم يكن الموت نتيجةً طبيعيةً لفقدان الشركة مع الله فقط، ولكنه صار الآن بسبب خطية آدم ناتجاً من الناموس أيضاً، ومربوطاً معه لعنة التعدي (تفسير يوحنا ١٩ : ١٦ . ١٨ مجلد ٧٤ : ٦٤٧). ومع هذا أيضاً دخل عنصرٌ جديدٌ، وهو خضوع الطبيعة الإنسانية للشيطان وسيادة الأرواح النجسة على الإنسان(يوحنا ١٤ : ٣٠ . ٣١ مجلد ٧٤ : ٣٢٨). إذن الموتُ مكونٌ من ثلاثة عناصر رئيسية:

١. فقدان النعمة الآتية من الله، والتي تهب له الحياة.

٢. سقوط الإنسان تحت حكم اللعنة النابع من تعدي الناموس، وبذلك

صار للناموس قوة للموت.

٣. خضوع الإنسان للشيطان بسبب اشتراكه في الغواية.

وهكذا إذا استطعنا أن نحفظ هذه العناصر الثلاثة الرئيسية معاً كمكونات الموت، وهي العناصر التي تظهر بشكل واضح في العهد الجديد كله وبشكل خاص عند القديس بولس والقديس يوحنا، أمكننا أن نرى أين أخفقت النظرية القانونية في تفسير موت المسيح على الصليب، وذلك لأنها لا تستطيع أن تقدم أي إجابة أو تفسير على النقطة الأولى الخاصة بالنعمة الإلهية؛ لأن هذا الجانب بالذات لا يدخل في إطار المعالجة القانونية لرفع عقوبة الموت التي جاءت مع الناموس، وإنما يدخل في موضوع النعمة و صُلب عقيدة الخلاص كتعبير عن محبة الله كما شرحه الآباء الرسل وآباء الكنيسة الجامعة.

ما معنى حكم الموت النابع من الناموس:

في ضوء ما سبق وذكرناه يبدو لنا أننا لا نستطيع أن نجعل موت الإنسان عائدٌ إلى أسباب طبيعية، أي إلى انحلال الجسد، وإنما يعود بشكل خاص إلى فقدان النعمة.

لقد علَّق القديس السكندري عدة مرات على نص سفر التكوين "تراب أنت والى التراب تعود" أثناء شرحه لإنجيل يوحنا، ويفهم القديس كيرلس النص على أنه اختفاء عمل الروح القدس من آدم أي انقطاع شركته مع الثالوث. وهكذا يبدو واضحاً أنه عندما سمع آدم حكم الموت "مِن الذي يقول أنا الحياة، فإن حياته الجسدية سقطت في قبضة الموت، أي الجسد فقط. أمَّا النفس فقد ظلت غير مائتة؛ لأن الحكم شمل الجسد فقط" (يوحنا ١ : ١٤ . مجلد ٧٣ : ١٦٠).

والقديس كيرلس هو أكثر الآباء اهتماماً بكلمة عدم الموت، وهي في الواقع العطية التي وُهبت للإنسان عندما خُلِق، والتي لم يسمح الله بأن يفقدها الإنسان؛ لأن ذلك معناه أن يصبح الإنسان في حالة عدم ويستحيل إعادته إلى الحياة. لكن احتفاظ الإنسان بعدم الموت لا يعني أن الإنسان في حالة جيدة. فقد استعمل القديس كيرلس كلمة أخرى، وهي كلمة "عدم الفساد"، وهي عطية الحياة النابعة من الروح القدس. وعندما فقد الإنسان عدم الفساد لم يعد في الواقع حياً، وإنما الذي حفظه من الموت هو القدرة الإلهية. أمَّا الإنسان فهو ليس حياً وليس ميتاً، ولذلك كان من الممكن أن ينال الخلاص.

هنا يجب أن نرى بكل وضوح أن خطية الإنسان وتعدِّي الناموس لم يضع الإنسان تحت حكم الموت الروحي، وإنما جعلت الإنسان غير قادر على أن يجدِّد حياته بالتوبة.

والموت الروحي يعني في النهاية العدم. وإذا كان الإنسانُ قد عاد إلى الموت، أي عاد إلى العدم، فإن حكم الناموس في هذه الحالة يصبح حكماً لا يمكن تغييره فعلاً، وبالتالي يكون واضحاً أننا لسنا أمام قضية صدر فيها حكمٌ مطلق بناءً على أن الخطية مطلقة وتحتاج إلى عقوبة مطلقة. فالعقوبة المطلقة في هذه الحالة هي موت الإنسان روحياً، وهذا ما لم يحدث؛ لأن الله كان يدَّبر خلاص الإنسان. فالله الذي وقَّع العقوبة على الإنسان هو الذي كان يسعى إلى خلاصه في نفس الوقت. فجاء الحكم في إطار الخلاص، وليس العكس. ذلك أن عدم تلاشي الإنسان معناه في النهاية أن الخطأ الفادح كان سيعالج بالخلاص وليس بالعقوبة "عندما سقط آدم لم يمت روحياً، فقد كان الله يعلم أنه سوف يجدد الإنسانية ولن يسلمها إلى الهلاك" (مجلد ٦٩ : ٢٤).

وهكذا لم يكن حكم الناموس حكماً مطلقاً؛ لأن حكم الناموس المطلق معناه أن ينفصل الإنسان عن الله انفصالاً أبدياً، وبالتالي كان من المستحيل

على المسيح أن ينفصل عن الآب انفصالاً أبدياً لكي يحل محل الإنسان الخاطئ، أو أن يدفع عنه الدين بالمعنى الذي ينسى أن الرسول استعمل استعارةً شائعةً لكي يشرح سر الصليب.

فالمسيح لا يمكن أن يصبح تحت لعنة الناموس، بمعنى أن ينفصل عن الآب. وحتى انفصال النفس عن الجسد في المسيح الواحد لا يشرح النقطة القانونية التي أخرجها المدافعون عن النظرية، ذلك أن انفصال النفس عن الجسد لا يحمل بالمرة أي معالم لانفصال المسيح عن الآب، أو حتى انفصال النفس الإنسانية عن الآب؛ لأن اتحاد النفس الإنسانية بلاهوت الابن يجعلها في شركة مع الآب، وهي القضية التي نوقشت أثناء النسطورية والتي أدى النقاش فيها إلى العبارة المشهورة الشائعة: "لاهوته لم ينفصل قط عن ناسوته".

خطية آدم وانتقالها إلى الإنسانية:

ما معنى أن آدم قد أخطأ ؟ وما هي علاقتنا بخطية آدم ؟

لقد دار جدل طويل حول موقف الآباء الشرقيين وموقف أوغسطينوس بالذات من هذا الموضوع. فقد دار الجدل منذ زمن أوغسطينوس حول الكلام عن وراثة خطية آدم، ولكنه تطور فيما بعد أوغسطينوس إلى اعتبار أن الخطية قانون من قوانين الوراثة. وهو تفسير يختلف عن التفسير الشرقي الذي تم الكشف عنه بفضل اكتشاف تعليم الآباء الشرقيين وبشكل خاص أثناسيوس وكيرلس. ويلزمنا هنا أن نرى في هذه الدراسة أولاً النقاط التي يتفق فيها الآباء مع أوغسطينوس، قبل أن نتكلم عن النقاط التي يختلف فيها الآباء معه ، ألا وهي:

١. يؤكد الآباء وأوغسطينوس أن الطبيعة الإنسانية الميتة هي التي تنتقل من جيل إلى جيل. وإننا وُلدنا من آدم الميت، وبالتالي تعذَّر علينا الخلاص من

الموت؛ لأننا نحمل كل صفات الطبيعة الميتة.

٢. يؤكد الآباء وأوغسطينوس أن الطبيعة الإنسانية صارت ميالة للخطية، وأن الإنسان صار عاجزاً عن أن يحيا حياة صالحة؛ لأن نبضات الضعف والموت والميل إلى الشر صارت كامنة فيه.

لكن القديس كيرلس بالذات يختلف مع أوغسطينوس حول مسألة وراثة خطية آدم، أي ذنب آدم المعروف باسم"الخطية الأصلية". فنحن لم نشترك في ذنب آدم، ولذلك لم نرث ذنب آدم، وليس لنا علاقة بالمرة بما فعله آدم، وإنما لنا علاقة بنتائج فعل آدم. وبالتالي علينا أن نحذِّر الوقوع في الثنائية التي سقط فيها أوغسطينوس، ذلك أن التعليم بانتقال الخطية من كائن إلى آخر عن طريق الوراثة يؤِّدي بنا إلى نتائج خطيرة لا يمكن قبولها إيمانياً، ويمكن أن نلخصها فيما يلي:

١. الوراثة قانون من صنع الخالق، وهو قانون طبيعي يعود إلى الله نفسه خالق الطبيعة. فلو كانت الخطية، أي ذنوب أناس عاشت قبلنا تورَّث لنا، لكان وضع الطبيعة الإنسانية الآن أسوأ مما كان عليه سابقاً، وهو أمر لا يمكن أن نصرح به ولا يوجد عليه دليلٌ في الواقع.

٢. لو كانت الخطية بالوراثة، لكان الله هو المسئول عن الخطية؛ لأن الله هو الذي وضع القانون. ولتعذَّر علينا أن نقول إن الله هو مصدر الخير والصلاح. وفي هذا عودة إلى ثنائية المانوية، أي التعليم بالثنائية الطبيعية بين الخير والشر، أي أن الخير طبيعي مخلوق، والشر طبيعي مخلوق، وكلاهما قادر على البقاء والاستمرار بسبب انتمائه إلى الإله الذي خلقه، وهو ما لا تقبله المسيحية كديانة توحيد.

٣. ولو كان الخير والشر قانونين في الطبيعة، لانتفى تماماً أي كلام عن

نعمة الله الغافرة والمجددَّة؛ لأن النعمة لا تنتمي إلى قانون طبيعي، وهي ليست جزءً من النظام المخلوق، وإنما هي الحضور الإلهي الفائق في حياة الإنسان. وما الشر إلاَّ المرض الذي أبعد الإنسان عن الحضور الإلهي الفائق.

٤. ولو كان الشر يعتمد على قانون الوراثة، وكان الشر من صنع الإنسان، باعتبار أن الإنسان هو الذي اخترعه حسب تعليم الآباء جميعاً، وبشكل خاص أثناسيوس وكيرلس السكندري، لأصبح من الضروري على الذين ينادون بأن الشر يورَّث، أن ينادوا أيضاً بأن الإنسان خالقٌ استطاع أن يغيَّر في النظام الكوني، وأن يخترع شيئاً له قوة السيادة على الطبيعة الإنسانية. ولَتَحتَّم علينا . منطقياً . أن نبحث عن اختراع إنساني آخر يلاشي الاختراع الأول. ولكن الواضح هو إنَّ تعذُّر العودة إلى الحياة الأولى عندما سقط آدم . كما ذكرنا . يعود إلى غياب عمل الله في الطبيعة الإنسانية، أي انسحاب الروح القدس من الإنسان. وذلك هو الذي جعل عجز الطبيعة الإنسانية أمراً لا يمكن أن تتخطاه الطبيعة الإنسانية بدون عمل النعمة.

كيف شرح القديس كيرلس علاقتنا بخطية آدم ؟

بكل أسف، فقد ضاع أغلب التفسير الكامل للرسالة إلى رومية الذي كتبه هذا المعلِّم العظيم، ولكننا نحمد الله على أنه لا زال لدينا تفسير الإصحاحات من الثالث إلى السادس، بالإضافة إلى شذرات كاملة على النصوص الهامة التي أثارت جدلاً واسعاً في التاريخ الكنسي، وبشكل خاص رومية ٥ : ١٤ "لكن ملك الموت من آدم إلى موسى وذلك علىالذين لم يخطئوا مثلما أخطأ آدم أو على شبه تعدي آدم" (الترجمة البيروتية).

ويمهِّد القديس كيرلس لشرح هذه النقطة الأساسية بالذات، بالكلام عن البشرية كشجرة تنمو، أصلها آدم، فيقول:

"وبعد أن أخطأ آدم فَسَدَ أصل الشجرة أو جذرها، فنَمَت الأغصان ضعيفةً عاجزةً وميتةً. لقد دخلت الخطية الطبيعة الإنسانية وجعلت كل البشر خطاة. وقد يسأل أحدهم قائلاً: وما علاقتي بآدم، وهل يحاسب الابن على ذنب أبيه؟".

(شرح رومية ٥ : ١٤).

وطبعاً كما هو واضح، فإن لغة القديس كيرلس يمكن أن تفهم بالشكل السائد عندنا، ولكن علينا أن نحترس عندما نقرأ بالذات نص رومية ٥ : ١٢"من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية (دخل) الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع"، فكيف يشرح كيرلس هذا النص؟ وهل أخطأ الجميع في آدم تعني أن يرثوا ذنب آدم أم أن الموضوع له بُعدٌ آخر، قلما ننتبه إليه؟

أولاً : يؤكد القديس كيرلس أن معنى كلمات الرسول التي تُترجم "أخطأ الجميع" هو "أخطأ الجميع كما أخطأ آدم"، أو "تعدى الجميع الناموس كما تعدى آدم"، ليس في آدم، وإنما في الواقع الإنساني الذي فيه يكسر كل إنسان الناموس الإلهي.

ثانياً : لقد كانت خطية الإنسان الأول هي الابتعاد عن مصدر الحياة أي الله. هذه الخطية هي التي جعلت للموت السيادة على الطبيعة الإنسانية. وهي التي جعلت الموت هو قاعدة الخطية، وهو ما نراه في شرح الرسول نفسه "بالخطية دخل الموت، أي ابتعاد الإنسان وتغرُّبه عن الحياة التي من الله. هذا ما جعل الكل يخطئون لأنهم بالموت انفصلوا عن الله، وبالموت عاشوا في الخطية" (شرح رومية ٥ : ١٢).

إذن، عندما أخطأ آدم ومات، مَلَك الموت حتى على الذين لم يقلِّدوا أو يتشبَّهوا بآدم في سقطته، "وملك الموت من آدم إلى موسى" (رو ٥ : ١٤).

أي في الفترة السابقة على إعطاء الشريعة. وبالتالي، فقد ملك الموت حتى على الذين عاشوا قبل ناموس موسى، كيف حدث هذا رغم عدم وجود ناموس؟ إن الجواب قد سبق وأشرنا إليه، وهو أن الحياة أسبق من الناموس، وأن النعمة أعظم من الوصية، وأن الإنسان عندما أخطأ، فقد حرم نفسه من نعمة الروح القدس، فصارت الطبيعة الإنسانية مريضة في كل البشر حتى في الذين لم يتشبهوا بآدم في سقطته"(المرجع السابق).

ثالثاً : يؤكد القديس كيرلس أن مفتاح الموضوع كله هو المقارنة بين آدم الأول وآدم الثاني. وهو موضوع من أكبر الموضوعات في كتابات القديس كيرلس، ولا يمكن أن ندرسه هنا، وإنما نكتفي بما ذكره كيرلس نفسه في شرح رومية ٥ . ١٦ :

> **"الحكم من واحد للدينونة، أي للموت. وهكذا، الذين لم يشتركوا في خطية آدم سرى إليهم الموت بسبب وحدة الطبيعة الإنسانية التي خُلقت مثل شجرة وأصيب جذرها بالموت، فسرى الموت للأغصان. وهكذا أخطأ الجميع ليس لأنهم اخطئوا عندما أخطأ آدم، لأنه عندما أخطأ آدم لم يكن هؤلاء موجودين. ولكن؛ لأن الجميع من الطبيعة التي سقطت تحت سلطان الناموس والموت، قيل إن الجميع أخطئوا لأننا جميعاً تركنا الله عندما تركه آدم".**
>
> (تفسير رومية ٥ : ١٨. مجلد ٧٤ : ٧٨٨ . ٧٨٩).

رابعاً : إذن، فالقديس كيرلس يعي تماماً أن البشر لم يكن لهم وجود عندما أخطأ آدم، فما هي إذن حقيقة العلاقة بيننا وبين آدم؟

يعود القديس كيرلس لنفس الموضوع في الحوار الأول عن الثالوث القدوس، ويؤكد أننا جميعاً نقلد آدم في عصيانه للوصية. ولكن النقطة الحاسمة في الموضوع

هي التغيُّر الذي أصاب الطبيعة الإنسانية بسبب ابتعادها عن الله، هذا التغيُّر كان مصدره فقدان النعمة، وهو ما جعل النفس الإنسانية تفقد صلتها بالله "وهكذا انتشرت الدينونة لكل الناس، ورغم أننا لم نجرح بنفس جرح آدم، إلاَّ أننا صرنا مثله، أي أن النفس الإنسانية صارت متغيَّرة وانحطت حتى قواها الطبيعية، وتغيِّرت من البهاء إلى الفساد. وإن كانت الآن قد تغيِّرت في المسيح من الفساد إلى الصلاح. وإننا جميعاً قد أضفنا إلى فساد آدم فسادنا الشخصي" (حوار عن الثالوث ١ : ٧٥ :٦٧٦ و ١ : ٧٥ : ٦٧٥. رومية ٦ : ٦ مجلد ٧٤ : ٧٩٦).

خامساً : يقول كيرلس: "بخطية آدم صار الجميع ضعفاء، وصارت الأهواء وشهوات الجسد في الجميع، فصار الكل تحت دينونة الناموس"(رومية ٨ : ٢. ٧٤ : ٨١٦). وهذا ما جعل الطبيعة الإنسانية بعد أن فقدت النعمة. تصبح في مواجهة مع الناموس وبدون معونة، بل في مواجهة الناموس وهي ضعيفة تماماً، وبذلك صار الموت "مثل ثعبان يزحف ويلدغ كل البشر بالخطية السائدة فينا"(شرح يوحنا ٢٧ : ١٤).

إذن، فسيادة الخطية بسبب غياب النعمة، وفساد الطبيعة الإنسانية، وفقدان معرفتها بالله، كل هذا يعني في النهاية أن كلمة "خطية" هي كلمة ذات معاني متعددة، وليس لها مدلول واحد. فهي تعني فقدان النعمة الإلهية . سيادة الموت . الاصطدام الدائم بالناموس . العجز والضعف، وعدم الثبات والابتعاد عن الخير. كل هذه المعاني نراها واضحة عند الآباء جميعاً، وعند القديس كيرلس بشكل خاص، وهي معاني أساسية تشرح لنا لماذا تمسَّك الآباء . بإصرار لا مثيل له في التاريخ الإنساني . بعقيدة إلوهية الابن وتجسُّده في شكلنا الإنساني.

الفصل الثالث

حاجتنا إلى ألمخلِّص يسوع المسيح

النقطة الواضحة جداً عند القديس كيرلس، هي موقف الإنسان بعد السقوط. والإنسان عند القديس كيرلس هو البشر، أو هوالطبيعة الإنسانية. لقد مرضت الطبيعة الإنسانية، وبالتالي أصبح مرض الأشخاص الذين ينتمون إلى هذه الطبيعة أمراً معروفاً وظاهراً. فقد كانت إحدى نتائج السقوط الأساسية، هي اعتماد الإنسان على قوته الذاتية في البقاء في الشركة مع الله. هذه القوة الذاتية هي الإرادة الإنسانية التي صارت بعد السقوط غير مستقرة وتلعب بها الأهواء. أمَّا العقل الإنساني الذي سبق وأن استنار باللوغوس وبشركته العقلية في الروح القدس، وهي شركته بالثالوث، فقد فَقَدَ هذه الاستنارة وتعيَّن عليه أن يرى بقدراته ما يمكن أن يراه، وهذا هو . كما يؤكد الآباء جميعاً . الذي قاد أغلب البشر إلى الوثنية.

إن حالة الإنسان بدون النعمة التي سبق ووصفها القديس أثناسيوس بأنها حالة طبيعية، هي حالة الإنسان المخلوق من العدم، والذي لا يمكنه البقاء حياً إلاَّ بالقدرة الإلهية. فإذا فَقَدَ النعمة تحوَّل إلى كائن طبيعي لا يمكنه أن يحيا حياًة فائقًة على صورة الله، وهي العطية التي لا تنتمي أصلاً إلى القدرات المخلوقة.

إذن، بعد السقوط تعذَّر على الإنسان أن يحيا في شركة مع الله؛ لأن هذه الشركة تقوم على طرفين هما الله والإنسان. ولما كان الطرف الثاني "الإنسان" قد رفض نعمة الله، فلماذا تعذَّر عليه أن يعود ويطلبها من جديد ويحيا بها كما كان سابقاً ؟

يؤكد القديس كيرلس السكندري إن ما فقده الإنسان . خصوصاً إذا كان هذا المفقود هو النعمة التي يهبها الله . لا يمكن أن يسترده الإنسان بقدراته، وإنما يرُّد الله إليه النعمة. فالقدرة الإنسانية ليست هي العنصر الحاسم في الموضوع، وإنما الإرادة الإلهية هي التي عليها أن تقبل أن تعطي.

وفي حالة السقوط والتغيُّر الذي أصاب الإنسان، وبشكل خاص الموت والفساد، فلم يرد الله أن يعطي أي عطية من أي نوع قبل أن يجدَّد الإنسانية ويخلقها من جديد.

"هل يمكن أن نقول إن الجسد المخلوق من التراب، هو مقدس بطبيعته حتى إذا لم يأخذ التقديس من الله الذي بطبيعته قدوس؟".

الفرق إذن بين طبيعة الله، وطبيعة الإنسان هو بدوره عامل حاسم في فهم حاجتنا إلى الابن والروح القدس. ولذلك فالجسد المخلوق من التراب ليس بالضرورة نجساً أو فاسداً، وإنما بقدراته الطبيعية وبدون الله هو لا شيء.

"كيف يمكن أن يتلاشى الفرق بين المخلوق من التراب، أي الجسد والجوهر الذي هو قدوس ونقي؟ أليس حقاً أنْ نقول إنَّ كل الكائنات العاقلة، بل وبشكل عام، كل الأشياء التي دُعيت إلى الوجود من العدم وتحسب ضمن الكائنات المخلوقة، لا تملك التقديس كثمرة طبيعية نابعة من طبائعها، وإنما هي نعمةٌ تُقترَض من الذي هو بالطبيعة قدوس؟"

(شرح يوحنا ١٧ : ١٨ . ١٩ . ك ١١ . فصل ١٠ ص ٤٥١).

فكيف يمكن أن يعود الإنسان إلى الله بدون الله؟ فالله الذي هو وحده مصدر الوجود والحياة والتقديس هو الذي يجود. فالنعمة تُقترَض، وهي قرضٌ

إلهيٌ، أي أبدا لا تمت بصِلَةٍ إلى الطبيعة المخلوقة.

لقد كان على الإنسان أن يعالج قضاياه الأساسية : الموت . والخطية . والشيطان بقدراته الخاصة. وكان العلاج مستحيلاً، فالموتُ حَمَل تغيُّراً هائلاً في الطبيعة الإنسانية، وكان هذا التغيُّر هو في كيان الإنسان نفسه، ولا يمكن أن يغيره إلاَّ الخالق.

وقد جَعلت الخطية الطبيعة الإنسانية طبيعةً ميَّالةً إلى الشر، ولا تفهم الله بشكل سليم، وتنزع إلى الأهواء والشهوات وتفسد قدرة الإنسان. أمَّا الشيطان، فقد كانت له سيادة على الإنسان بسبب الأهواء والشر الذي جعل قدرة الشيطان على أَسْر الإنسان ممكناً، بل واقعاً مراً.

والذي ربط هذه العناصر الثلاثة معاً، كان الناموس. فالإنسانُ ضعيفٌ، وهو ما يجعل الناموس قوياً. والإنسانُ تحت سلطان الموت، وقد تغيَّرت طبيعته الداخلية بسبب الموت والخطية، وبالتالي صار الناموس عدواً للإنسان، وصار الإنسانُ تحت سلطان الناموس بسبب الخطية "لم يكن الإنسان قادراً على تنفيذ الناموس المكتوب، أي ناموس الله، ولا كان قادراً على أن يحيا بناموس الروح، الناموس غير المكتوب الذي يلهم الإنسان بالصلاح"(تفسير رومية ٨ : ٣ مجلد ٧٤ : ٨١٧). وهكذا صارت لعنة الناموس تسود على الإنسان بقوة، بسبب فقدان العلاقة مع الله.

> **"فالإنسانُ الكائن الحي على الأرض،خُلِقَ في البدء (على صورة الخالق) كما تقول الأسفار الإلهية (كو ٣ : ١٠). وصورة الله تعني عدة أمور معاً، فلا يوجد بُعدٌ واحدٌ"للصورة الإلهية". والجانب الأساسي لصورة الخالق هو"عدم الفساد" وعدم الفناء. ولكن الحياة العاقلة الإنسانية لم**

تكن بقدراتها أو بطبيعتها قادرة على أن تظل في عدم الفساد وعدم الفناء، إذ كيف يستطيع الإنسان المخلوق من التراب أن يرتفع إلى عدم الفساد بقوته الطبيعية، دون أن يأخذها كبركةٍ مثل باقي المخلوقات من الله الذي هو غير فاسدٍ وغيرُ فانٍ بالطبيعة .. ولذلك، ولكي لا يعود إلى العدم ما جاء من العدم، أي إلى أصله الذي أُخذ منه، بل أن يظل باقياً دائماً . وهذا هو قصد الخالق . جعله الله شريكاً في طبيعته عندما "نفخ في وجهه نسمة الحياة" (تك ٢ : ٧)،أي روح الابن الذي هو مع الآب الحياة والذي فيه يقوم الكل، وفيه كل الكائنات الحية تتحرك وتحيا كما يقول الرسول بولس (أع ١٧: ٢٨)"

(شرح يو١ :٩ مجلد ٢ : ٤٨٤).

"فالإنسانُ ميِّتٌ بالطبيعة، و(بالطبيعة) تعني أن الإنسان مثل المياه، باردة بالطبيعة لا تحتوي على عنصر الدفء، وعنصر الدفء هو عنصر آخر غير المياه"

(تفسير يوحنا ٤ : ٢).

فحياة عدم الموت ليست عنصراً طبيعياً ينتمي إلى الطبيعة المخلوقة، وإنما هي عنصرٌ يأتي من خارجها، من مصدر عدم الموت وعدم الفناء، أي الله. ولذلك يؤكد كيرلس بوضوح على أن بقاء هذه النعمة بعد السقوط هو الذي أنقذ الإنسان، فيقول:

"إن العقيدة القديمة التي نؤمن بها جميعاً وتعتبرها جميع الكنائس . وأنا أعني الإيمان الثابت . هي أن النفسَ العاقلةَ

الإنسانيةَخالدّة، وأن الموتَ لايُفسد النفسَ مثلما يفسد الأجساد الأرضية،وإنما خالقُ كل الأشياء يحررُّها من الجسد،ويضُمها إليه ويبُعدها عن اختبار الموت، ويجعلها تشترك في الحياة" (مجلد ٦٨: ٦٩٧).

فإذا كانت كل الأشياء الصالحة النافعة تأتي من الله إلى الإنسان، فإن خلاص الإنسان يعتمد تماماً على عمل الله، وبدون عمل الله لا يمكن أن ينال الإنسان شيئاً.

تدبير التجسُّد:

يقول القديس كيرلس:

"انظروا كيف أن سر تدبير التجسُّد يظهر وقد امتلأ من القدرة الإلهية؛ لأن القديس بولس يقول كان من الضروري . لاحظ من الضروري. أن يواجه إنسانُ الموت عنا، ولذلك السبب أخذ الكلمة الإلهي المولود من الله، جسداً من زرع إبراهيم" (تفسير١كو١٥ : ٢٠).

وجسد المسيح الذي أخذه من العذراء بطبيعته مثل أجسادنا قابل للفساد والموت، ولكنه صار غير ذلك بسبب اتحاده باللاهوت. يشرح القديس كيرلس هذه النقطة أثناء شرحه لكلمات الرب : "الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة" (يو٦ : ٦٣) ، ويقول :

"إنه يملأ جسده الخاص به بالحياة المحيية التي تظهر في الأعمال الروحية المتنوعة، وهنا يصف جسده "بالروح" دون أن يحوَّله من جسد إلى روح. وإنما بسبب اتحاده

الكامل به ملأه بقوته الإلهية الواهبة الحياة، وهي ما يجب أن يوصف بأنه روح، ولا عجب من ذلك ولا داعي للشك بالمرة. فإذا قيل من اتصل بالرب هو روح واحد" (١كو ٦ : ١٧)، فكيف لا يقال عن جسده الخاص به إنه واحد معه؟ ولذلك، فمعنى الكلمات التي نشرحها الآن لا يخرج عما ذكرناه، وكأن الرب يقول لنا: أنا أدرك أنكم تجادلون ذواتكم، وبغباوة تتصورون أنني أخبركم أن الجسد الترابي بطبيعته واهب الحياة، ولكن ليس هذا هو قصد كلماتي. وإنما كان قصد مجيئي إليكم وكلماتي المو جَّهة لكم هي روح الله والحياة الأبدية. فليست طبيعة الجسد هي التي تهب الروح المحيي، وإنما قوة الروح التي تجعل الجسد واهباً للحياة. فالكلام الذي أتكلم به معكم هو "روح"، أي روحاني، أي من الروح. وهو حياة، لذلك فهو يهب الحياة؛ لأنه من الذي بالطبيعة الحياة. وهو بهذه الكلمات لا ينكر جسده، وإنما يعلِّمنا الحق الخاص بتجسُّده. وما سبق وذكرنا، سوف نعيده من أجل الفائدة. الجسد بطبيعته لا يمكن أن يحيي، لأن ما في جسده ليس إلاَّ اللاهوت بطبيعته الواهبة للحياة؟ وحتى في المسيح لم يكن الجسد وحده وبقدراته الذاتية واهباً للحياة، وإنما باتحاد الكلمة به وهو بطبيعته الحياة. وعندما يقول المسيح عن جسده إنه واهب الحياة، فهو لا يشهد للقوة المحيية التي فيه للجسد، وإنما من لاهوته، أي روحه. وبسبب اللاهوت الذي في جسده صار الجسد محيياً؛ لأنه حوَّله بالاتحاد إلى قوته الذاتية" (شرح يو٦: ٦٣).

وهنا يمكننا أن نرى بكل وضوح لماذا هاجم كيرلس النسطورية بعنف شديد؟ إنه يقول:

"لقد صَمَد جسده، وهذا ضد طبيعة الجسد، بل أنه ضد طبيعة الجسد أن يصير أيضاً محيياً. إلاَّ أنه ذاك الذي هو سمائي، جعل الذي من الأرض سمائها،بل ومحيياً رغم أنه بطبيعته قابل للانحلال. وهنا يجب أن نلاحظ كيف لا يقبل أن ينقسم إلى مسيحين حسب المشورة الرديئة للبعض. أنه يحفظ نفسه واحداً غير منقسم بعد التجسُّد فيقول إن "ابن الإنسان يصعد إلى حيث كان من قبل"، ورغم أن الجسد الترابي لم يكن في السماء من قبل، وإنما الكلمة كان من قبل، وكان فوق الجميع قبل أن يحل في الجسد. وما ذكره الرسول هو حسنٌ ولائقٌ جداً، وبعد أي قوله "رب واحد يسوع المسيح" (١كو ٨ : ٦). فهو واحد قبل التجسُّد، وبعد التجسُّد؛ لأننا لا نعتبر جسده غريباً على الكلمة، وبذلك يقول إن الكلمة الذي نزل من السماء هو ابن الإنسان الذي في السماء") تفسير يوحنا ٦ : ٦٢).

فالتجسد ليس سوى اتحاد اللاهوت بالناسوت، وهذا الاتحاد بشكل دقيق يعَّبر عنه القديس كيرلس بأنه "سر التدبير الفائق".

نتائج اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح الواحد:

لعل أول ما يجب أن نلاحظه هو التحول الذي حدث في الجسد الترابي أو الأرضي الذي أخذه الرب. هذا التحول هو مصدر الحياة والخلاص للإنسان. لم يعُد الجسد المأخوذ من العذراء مثل أي جسد، ورغم أنه مثل أجسادنا جميعاً، بل ومن نفس طبيعتها، ما خلا الخطية . إلاَّ أن اتحاده باللاهوت جعله مختلفاً عنا اختلافاً كبيراً. يقول كيرلس:

> **"الطبيعة التي خضعت للفساد لا يمكن أن ترتفع إلى عدم الفساد، إلاَّ بنزول الطبيعة التي تعلو على كل أنواع الفساد والتغُّير وباتحادها بها، وبالاتحاد ترتفع تلك الساقطة، إلى صلاحها الدائم، أي عدم الفساد"**
>
> (تفسير يوحنا ك ١١ فصل ١٢).

وهنا علينا أن نميز بين عدة قضايا أساسية:

أولاً : ما هو بالطبيعة مخلوق، وهو حالة المحدود وعدم القدرة على البقاء.

ثانياً : الطبيعة الصالحة والغنية بكل شيء، والتي تملك البقاء وعدم الموت والحياة الأبدية.

ثالثاً : الاتحاد الذي جمع المتغير والفاسد والمائت، أي الإنسان، بما هو غير فاسد ومائت، فأدخل الطبيعة المخلوقة في علاقة فائقة لا تملك الطبيعة الإنسانية أي شيء فيها سوى أن تتحول بالاتحاد، وتنال ما ليس من طبيعتها وما هو ليس فيها.

فالتجسُّد هو الاتحاد بالناسوت وهو لا يلغي طبيعة الناسوت، وإنما يُغني الناسوت بما ليس فيه ولا يملكه. ويشرح كيرلس هذه النقطة في العظة ١٧ من

العظات الفصحية، فيقول:

"لأن كلمة الله هو بالطبيعة حياة، فقد جعل ما هو بالطبيعة فاسدٌ، جسداً له لكي يحوّله إلى عدم فساد بإبطال قوة الموت فيه. وكما أن الحديد إذاوُضِعَ في نارٍ متأججةٍ يفقد برودته ويأخذ شكل النار وحرارتها، بل يصبح بدوره حاراً وحارقاً ويشعل النار في أي شيء يمسه، هكذا الجسد، أخذ في طبيعته عدم الفساد والحياة المحيية لكلمة الله ولم يعُد كما كان من قبل، وإنما صار أسمى من الفساد".

(١٧ : ٤ . مجلد ٧٧ : ٧٨٥ . ٧٨٨).

والاتحاد لا يوصف ولا يمكن تحليله، وإنما هو عمل إلهي أراد به الابن أن يزيل الموت من الناسوت أي ناسوته هو، وبالتالي يصبح هذا ممكناً بالنسبة لباقي البشر.

"ولكي يحرر من الفساد ومن الموت الإنسان الذي أدين باللعنة القديمة، صار بشراً. وادخل نفسه في طبيعتنا، وهو الذي بالطبيعة الحياة. وبهذه الطريقة غلب سلطان الموت. وقوة الفساد القاهرة لكل شيء أُبيدت، ولأن الطبيعة الإلهية، حرةً حريةً مطلقةً من الميل للخطية، حملنا هو نحن جميعاً في جسده الخاص به، وهكذا نُرى فيه عندما تجسد. وعندما أمات أعضائنا التي على الأرض (كو ٣ : ٥)، أي أهواء الجسد، أباد ناموس الخطية الذي كان يستبد بأعضائنا" (يوحنا ك ٦ : فصل ١).

وهنا نرى بكل وضوح أن الابن عندما تجسَّد، فقد جمع كل الإنسانية فيه

عندما أخذ طبيعةً إنسانيةً منّا. ولذلك، فنحن فيه ننال ثمرات الاتحاد. وحتى البشر الذين لا يؤمنون بالمسيح، سوف يقومون بسبب قيامة الابن المتجسَّد، ولكن ما أعظم الفرق بين قيامة المجد ومجرد القيامة. وهنا نرى أن النعمة تُقبل إلى الجميع، ولكنها تعمل فقط في الذين يؤمنون. هؤلاء يقومون في مجد، وهؤلاء يحيون فقط: "الأموات سيقومون في عدم فساد ولكن ليس الكل سيقوم في مجد"(شرح رسالة كورنثوس فصل ٧ على ١ كورنثوس ١٥ : ٤٢ . ٤٣).

فالاتحاد لا يهب الإنسان بشكل اتوماتيكي كل شيء، وهذا ما يؤكده كيرلس:

> **"ليس لجميع البشر وبدون تمييز يهب النعمة الكرامة والمجد. وإنما العكس، للمختارين الذين اختارهم وخيَّرهم على الآخرين، هؤلاء الذين صاروا مشابهين صورة ابنه (رو ٨ : ٢٨). فكل الأجساد. ونحن نعترف بهذا. سوف تعود للحياة، كالله، لابسةً عطية عدم الفساد، ولكن لن يتغيَّر الكل) ١ كو ١٥ : ٥١). فالأشرار سوف يظلُّون في صورة عدم الكرامة ولهدف الدينونة. أمَّا الأبرار وحدهم، فهم الذين سوف يتغيَّرون وينالون بركة عدم الفساد التي تغتني بلبس المجد الإلهي. ولذلك بقوته الإلهية الأقنومية وبعمل لا يمكن أن يعمله غير الله وحده قيل إنه "سوف يغيِّر جسد تواضعنا لكي يكون على صورة جسد مجده" (في ٣ : ٢١). وما هو جسد تواضعنا؟. إنه الجسد الأرضي والذي ربطه الموت كنتيجة للعنة القديمة التي أبادها المسيح عندما صار لعنةً لأجلنا" (غل٣ : ١٣). وتجديدنا وتحولنا إلى المجد لا يعني أننا سوف ننال**

طبيعة أخرى، لأننا سنظل كما نحن بشراً، ولكننا سوف نتجدَّد لأفضل. والنقطة الدقيقة هي أننا سوف نصير في عدم فساد وعدم فناء،وبالإضافة إلى ذلك سوف نتمجد"

(يوحنا ك ٣ : ٣١٦ . ٣١٧).

المسيح هو الجذر الجديد للإنسانية الجديدة:

الاتحاد هو اتحادُ حياةٍ بموت، ولذلك إذا كان الموت الحقيقي ليس هو انفصال النفس عن الجسد، بل انفصال النفس عن الله. "فالله حياةٌ، وكل من ينفصل عن الحياة هو ميت"(العظة ١٤ في مجموعة العظات المتنوعة مجلد ٧٧ : ١٠٨٨). فكيف يمكن أن تنبت حياة جديدة في البشر الذين بالخطية قد انفصلوا عن الله؟ لقد جهَّز الله أصلاً أو جذراً آخر غير الجذر القديم الذي نبتت منه الإنسانية القديمة، هذا الجذر هو المسيح.

"لقد صمم الخالق جذراً إنسانياً لجنسنا لكي يعيدنا إلى ما كُنَّا عليه، أي حالة عدم الفساد؛ لأنه كما أن صورة الإنسان الأول الذي من تراب قد نَحَتَت فينا صورة الموت وضرورة الموت والبقاء في الموت، هكذا . كعمل مضادٍ . صارت البداية الثانية، أي الذي جاء بعد آدم، أي المسيح أن نصير على شبهه وصورته بالروح القدس الذي يَطبع فينا عدم الفناء. وكما أن المعصية أخضعتنا إلى الدينونة في الجذر الأول، هكذا بالطاعة التامة، والخضوع صرنا شركاء في البركة السماوية التي من الآب...

كيف حدث هذا؟

"الابن الوحيد كلمة الله نزل من السماء طوعياً، ولم يملك عليه الموت كما ملك علينا، كما لو كان آدم قد نقل إليه أيضاً موتنا. وهذا غير ممكن؛ لأنه الحياة الذي يُحيي الكل. ولكنه تجسَّد لكي يعلِّمنا أن شكلنا الذي أمسك به الفساد، سوف ينتقل فيه إلى الحياة ... إنه غير معقول أن نعتقد بأن آدم المولود من الأرض كانسان استطاع أن يجرح الجنس البشري كله، فصارت اللعنة ميراثاً وقوة الموت سادت على الكل، بينما عمانوئيل الذي فوق من السماء والذي بالطبيعة الإله لم يستطيع أن يعطينا من جانبه اشتراكاً غنياً في حياته، أي للذين يدعوهم لأن يشتركوا فيه ويصيروا على مثاله بالإيمان".

(تفسير التكوين ١ : مجلد ٦٩ : ٢٨ . ٢٩).

معمودية المسيح في الأردن:

لقد فارق الروح القدس الإنسانية، فكيف يعود إليها؟

في اللاهوت المدرسي الغربي عاد الروح القدس إلى الإنسانية بعد موت المسيح وقيامته، أي في يوم العنصرة. وبلا شك، تعتبر العنصرة من الأحداث الخلاصية الأساسية، لكن بداية سُكنى الروح القدس في الإنسانية كانت في تجسُّد الرب ومعموديته، ولكن بعد القيامة سوف يتمجد المسيح، وسوف يأخذ الروح القدس من إنسانيته الممجدة لكي يكوِّن الكنيسة. أمَّا قبل الموت والقيامة، أي في المعمودية، فالروح القدس قد ارتضى أن يسكن في المسيح آدم الجديد، وهنا تتوسط معمودية المسيح تدبير التجسُّد. لقد تجسَّد الابن وأعطى الناسوت الاتحاد الكامل بأقنومه، ولكنه في الأردن يجعل ناسوته أداةً لحلول

الروح القدس، ويفتح بذلك مجال الروح القدس في الإنسانية كلها لكي تنال الإنسانية شركة في مسحته.

لقد درس كيرلس السكندري معمودية المسيح في أربعة من مؤلفاته الكبرى: التفسير العقيدي لإنجيل يوحنا . العظات على إنجيل لوقا . شرح يوئيل . شرح أشعياء.

يؤكد كيرلس أن الابن لا يحتاج إلى الروح القدس، فالابن لا يشترك في الروح القدس أي لا يأتيه من الخارج، وإنما الشركة هي في الجوهر وحسب الطبيعة الإلهية (يوحنا ١ : ٣٢ . ٣٣). وطبعاً لا يحتاج الابن حسب أقنومه للروح القدس، فهو واحدٌ معه في الجوهر، ولكن الذي يحتاج للروح القدس هو الإنسانية. لقد تمت مسحة الابن بعد تجسُّده وليس قبل تجسُّده. قبل التجسُّد كان في صورة ومساواة الآب، ولكن بعد التجسُّد قَبِلَ الروح القدس من السماء وتقدَّس(يوحنا ١ : ٣٣). فالمسيح هنا بهذا المعنى الدقيق نائب عن الإنسانية، وفيه هو كجذر جديد للإنسانية يجب أن يتم تغيير الناسوت.

> **"لقد سقط الإنسان الأول وأُسر بمكرٍ شديد. وكان ترابياً من التراب، ومال إلى المعصية، فسقط إلى الأرض أمه التي وُلِدَ منها. ولأنه غُلِبَ منذ ذلك الوقت وساد عليه الفساد والموت، أصبح يورِّث عقوبته لكل الجنس البشري. وعندما ساد الشر وتكاثر الشر فينا، وانحدر إدراكنا تدريجياً إلى ما هو أسوأ، ملكت الخطية. وهكذا دون إطالة، صارت طبيعة الإنسان في عِوَز للروح القدس الذي سكن فيه (في المسيح) ... ولذلك حيث أن آدم الأول لم يحتفظ بالنعمة التي أُعطيت له من الله، افتقدنا الله الآب وأرسل لنا من السماء آدم الثاني، وجاء في**

شكلنا ابنه الوحيد الذي بطبيعته بلا تغيير أو تحول؛ لأنه لم يعرف الخطية بالمرة. وهكذا كما بمعصية الأول صرنا تحت الغضب الإلهي صرنا بطاعة الثاني قادرين على أن نغلب اللعنة والشرور" (يو١ : ٣٣ . ١ : ١٨٣).

فقداسة المسيح الذاتية جعلته قادراً على أن يأخذ نعمة الروح القدس، وأن يحتفظ لنا بها في ثبات. فالروح لا يعمل في الإنسان لأن المسيح مات على الصليب وقام كما شاع في الغرب، وإنما يعمل في الإنسان؛ لأن بداية سُكناه كانت في الإنسانية الثابتة في الطاعة للآب، أي الابن المتجسَّد.

وهنا يقول كيرلس:

"لقد هرب الروح القدس من الإنسانية؛ لأنه لم يستطع أن يحتمل السُكنى في وسط الفساد. أمَّا الآن، فإن إنساناً جديداً قد ظهر في وسط البشر وجعل عودة الروح ممكنة؛ لأن هذا الإنسان بلا خطية. لأنه صار كواحد منا، وهو واحد لا يعرف الخطية، لكي ما يتعوَّد الروح القدس على الحلول فينا، دون أن يكون له فرصة الابتعاد أو المفارقة"

(يوحنا ١ : ٣٣ مجلد ١ : ١٨٤).

وهنا نرى أن كيرلس يستخدم عدة تعبيرات هامة للتمييز بين العطية الأولى لآدم، والعطية الثانية لآدم الجديد. فالعطية الثانية توصف بأنها :

. الخيرات التي لا تتزعزع.

. العودة الجديدة لعدم الفساد.

. تجديد الروح القدس وحلوله دائماً فينا.

وهنا يربط كيرلس بين معمودية المسيح والقيامة، فالروح قد وُهب بعد

القيامة؛ لأن عطية الروح القدس تحمل معها قوة الحياة، أي حياة المسيح وانتصاره على الفساد. وقد جمع القديس كيرلس كل هذه العناصر معاً في شرحه لنص يوحنا ٧ : ٣٩ " لم يكن الروح القدس قد أُرسل بعد لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد". وقد افتتح كيرلس الفصل الثاني من كتابه الثاني في شرح إنجيل يوحنابهذا العنوان "بعد صلب المخلص وقيامته من بين الأموات حلَّ الروح القدس فينا دائماً". وبدأ كيرلس بدراسة يوحنا ٧ : ٣٩ بالعودة المباشرة إلى العهد القديم، فيقول:

"إن من يتأمل بعقله وينظر إلى كل واحد من الأنبياء القديسين سيجد أسباباً تقوده إلى خضم من الأفكار، وسوف يسأل كيف أن الروح لم يكن بعد رغم أنه يوجد خوروس عظيم من الأنبياء يقف ليعلن بالروح القدس الأسرار الإلهية الخاصة بالمسيح وبكلمات كثيرة. وإننا نبتعد عن جادة الصواب إذا اعتبرنا أن عقل القديسين كان خالياً من الروح.

فالحقيقة الواضحة الخاصة بالأنبياء سوف تجعلنا نخجل، وتدعونا إلى ضرورة الإيمان بأنهم لبسوا الروح القدس، وهذه هي حقيقة النبوة الظاهرة في الأسفار المقدسة؛ لأن صموئيل يقول لشاول "إن الروح القدس سوف ينسكب عليك وأنت سوف تتحول إلى إنسان آخر" (١صم ١٠ : ٦).وقيل أيضاً عن أليشع الطوباوي "وبينما كان العواد يضرب العود أن يد الرب كانت عليه"(٢ مل ٣ : ١٥). بل أن ربنا يسوع المسيح نفسه يشهد لداود المبارك أنه نطق الأسرار الإلهية بالروح القدس .... فكيف أن الروح

القدس لم يكن بعد؟ هذا هو ما يجب أن نبحثه بدقة، لأنني اعتقد أن الإنجيلي المبارك ينطق هنا بالحق ... الكائن الحي العاقل على الأرض، وأنا اعني الإنسان، كان قد خلق في البدء في عدم فساد. وسبب عدم فساده وبقاؤه في كل فضيلة ظاهر في وضوح، فقد كان روح الله يسكن فيه، لأن الله "نفخ على وجهه نسمة حياة"(تك ٢ : ٧). أمَّا الإنسان، فبالخديعة القديمة تحول إلى الخطية، وهكذا بالانحدار المتوالي ساءت حالته وساء كل خير فيه بمعاناة فقدان الروح. وبالأولى لم يعد فقط خاضعاً للفساد، بل ميالاً لكل خطية. ولكن خالق الكل عندما قرر أن يفعل ما هو مجيد وفائق "لكي يجمع كل شيء في المسيح"(أف١ : ١٠)، وأراد أن يسترد مرةً ثانيةً طبيعته الإنسان، ويردها إلى حالتها الأولى الفائقة، وَعَدَ أن يعطي من جديد . مع الخيرات الأخرى . الروح القدس، إذ لم يكن من الممكن أن نعود إلى حالة الثبات في الخيرات بدون تزعزعٍ، إلاَّ بالروح القدس. وهنا يحدد الإنجيلي زمن نزول الروح القدس علينا، ويعد قائلاً في هذه الأيام، أي أيام المخلص "سوف أسكب من روحي على كل جسد" (يوئيل ٢: ٢٨).

وبداية أيام هذا الانسكاب على الأرض بتجسُّد الابن الوحيد، عندما صار إنساناً من امرأة كما في الكتب المقدسة، فبدأ الله الآب يعطي من جديد الروح القدس. فأخذ المسيح الروح القدس باعتباره باكورة الطبيعة التي تجددت. وهكذا شهد يوحنا قائلاً رأيت الروح: نازلاً من

السماء ومستقراً عليه (يو ١ : ٣٢)، فكيف أخذ المسيح الروح القدس؟ علينا أن نبحث معنى ما قيل.

فإذا أخذ، هل معناه أنه لم يكن فيه الروح القدس؟ إننا لا نقول هذا، حاشا لله. فالروح هو روح الابن، وهو لا يُعطى من الخارج كمن ليس له، مثلما تصلنا نحن خيرات الله من الخارج، وإنما الروح كائن فيه حسب الطبيعة الإلهية مثلما هو كائن في الآب، والذي منه ينبثق ويستقر في القديسين حسبما يشاء الآب أن يعطي نصيباً لكل منهم. ولكن إذا قيل إنه أخذ الروح القدس، فواضح أنه أمر يخص الزمان الذي صار فيه إنساناً، وإنه كانسان أخذ الروح. وإذا كان ابن الله الآب المولود من جوهر الآب قبل كل الدهور وقبل أن يتجسَّد، لم يستح أن يسمع من الله الآب قائلاًله . عندما تجسَّد . أنت ابني أنا اليوم ولدتك (مز ٢ : ٧)، فالذي هو مولود من الآب قبل كل الدهور قد وُلِد منه الآن في الزمان حسبما قيل : "اليوم ولدتك". ولقد قِيل ذلك لكي ننال نحن فيه البنوة؛ لأن الطبيعة الإنسانية كلها كانت في المسيح، لأنه صار إنساناً. وبنفس المعنى قِيل للابن الذي معه الروح القدس، أنه يعطيه الروح القدس حتى يمكننا نحن أن ننال الروح فيه. لذلك السبب عينه قِيل أنه أُخذ من زرع إبراهيم (عب ٢ : ١٦). وإنه صار يشبه إخوته في كل شيء (عب ٢ : ١٧). فالابن الوحيد لم يأخذ الروح القدس لنفسه؛ لأن الروح له وفيه، وبه الروح يعطي كما قلنا. ولكن لأنه صار إنساناً، فقد كانت فيه الطبيعة الإنسانية كلها، لكي ما يرفع الكل ويجدِّدها إلى حالتها القديمة التي كانت عليها.

لماذا قبل المسيح الروح القدس؟

"إنه ليس لنفسه قبل المسيح الروح. وإنما لأجلنا نحن فيه؛ لأن كل الخيرات تنبع منه وتنسكب فينا. لأن أبونا آدم قد تحوّل بالخديعة، وعصى وسقط في الخطية، ولم يحفظ نعمة الروح القدس. وفيه فقدت الطبيعة الإنسانية كلها الخير الذي من الله، وهكذا كانت الحاجة إلى أن يتجسَّد الله الكلمة الذي لا يعرف التحوّل، لكي يأخذ . كانسان . هذا ويحفظه دائماً لطبيعتنا. وعن هذه الأسرار سوف ندعو المرنم الإلهي لأن يؤيدنا، فقد قال هذا عن الابن أنت أحببت البر وأبغضت الظلم، لذلك مسحك الله إلهك بزيت الابتهاج أكثر من رفقائك" (مزمور ٤٥ : ٧)، ولأنه قيل أنت تحب البر لأنك بار يا الله لا يمكن أن تتحول إلى شيء آخر غير البر وأبغضت الظلم دائماً، لأن بغضة الظلم من صفاتك الذاتية مثل محبة البر، لذلك مسحك الله إلهك لأنك تملك البر غير المتغيَّر الذي يسطع ببهاء فائق من طبيعته، وهذا يعني أنه لن تتغيَّر وتتحول إلى الخطية التي لا تعرفها. وهكذا تحفظه لنا(البر) فيك بدون شك، لأنك تجسَّدت، أي في الطبيعة الإنسانية، المسحة المقدَّمة من الله الآب، أي الروح القدس.

لقد تجسد الابن الوحيد وصار إنساناً مثلنا، لكي تعود كل الخيرات فيه هو أولاً، ولكي تتجدَّد نعمة الروح القدس وتُحفظ فيه للكل مضمونة دائماً، لأن كلمة الله الآب يقرضنا الثبات من طبيعته.

لقد أدينت الطبيعة الإنسانية في آدم، وصارت عاجزة عن الثبات، وصارت تسقط وبسهولة في كل أنواع المفاسد. وكما في ارتداد الأول صار فقدان الخير عامة في كل الطبيعة؛لأنه منه عبرت الخسارة إلينا، هكذا . بنفس الطريقة . في ذاك الذي لا يعرف التغيُّر، سوف نربح فيض العطايا الإلهية وتُحفظ لكل جنس البشر.

وإذا ظن أحدٌ أننا لا نشرح شرحاً قويماً، فعليه أن يتقدَّم إلينا ويخبرنا لماذا دعي المخلص في الأسفار الإلهية آدم الثاني؟ ففي آدم الأول تقدَّمت البشرية من العدم إلى الوجود. وعندما جاءت إلى الوجود تحللت (تعفنت)؛ لأنها كسرت الناموس الإلهي. ففي آدم الثاني يسوع المسيح، تقوم إلى بدايةٍ ثانية،ويعاد إصلاحها إلى الحياة الجديدة، وعودة إلى عدم الفساد؛ لأن مَن يجب أن يكون في المسيح، فهو خليقة جديدة، كما يقول الرسول بولس (٢ كو ٥ : ١٧). ولذلك وَهَبَ لنا الروح المجدَّد، أي القدوس، فرصة الحياة الأبدية، بعد أن تمجَّد المسيح أي بعد القيامة؛ لأنه عندما حطَّم سلاسل الموت، وظهر حياً أسمى من الفساد، عاش وفيه الطبيعة الإنسانية؛ لأنه تأنس وصار كواحد منا.

لماذا بعد القيامة ؟

وإذا درسنا السبب الذي لأجله لماذا لم يُسكب الروح القدس قبل القيامة، فإن إجابتنا هي كما يلي: بعد القيامة

صار المسيح باكورة الطبيعة الإنسانية المجددَّة ، دون أن يكون لقيود الموت أي سلطان عليه، فقام حياً وعاش دون أن يسود عليه الموت. فكيف كان من الممكن أن يعيش ويقوم البشر قبل الباكورة ؟ فكما أن الشجرة لا تنمو ولا ترتفع على سطح الأرض إلاَّ إذا نبتت بكل يقين من البذر الذي هو بدايته، هكذا كان من المستحيل أن ننمو نحن بدون جذر عدم الفساد، ربنا يسوع المسيح قبل أن يتجدد هو. ولكنه هنا ـ في يوحنا ـ يرينا أن زمان نزول الروح القدس علينا قد حضر، أي بعد القيامة من الموت، نفخ وقال اقبلوا الروح القدس (يوحنا٢٠ : ٢٢) وهكذا صار زمان التجديد على الأبواب، بل بالحري قد دخل من الأبواب.

الفرق بين حلول الروح القدس في العهد القديم والعهد الجديد:

"بالنسبة للأنبياء القديسين كان لديهم استنارة غنية وهَّاجة مثل مصباح منير من الروح القدس القوي، الذي قادهم لكي يفهموا الأمور العلوية والخفية. أمَّا بالنسبة للذين يؤمنون بالمسيح، فإننا نثق في أننا لا ننال النور الغني الوهَّاج من الروح القدس، وإنما الروح القدس نفسه يسكن فينا ويجد مسكنه. وهكذا حقاً قيل إننا هياكل الله، ولم يُوصف أحدٌ من الأنبياء القديسين بأنه هيكل إلهي".

مديح للقديس كيرلس عمود الدين

اليوم تبتهج المسكونة ؛

لأن الإيمان الأرثوذكسي ثبّته كيرلس عمود الدين.

قاوم الهرطقات التي تفصل الله عن الإنسان

وثبّت الحدود التي رسمها الآباء الرسل .

باتحاد اللاهوت بالناسوت نالت البشرية

الثبات في البر، النعمة لن تتزعزع .

عمانوئيل ولد من امرأة

لكي نُولد نحن من الروح .

أخذ ميلادنا الإنساني، وأعطانا ميلاداً إلهياً ،

ورقّنا إلى الحياة الجديدة .